منهجية التواصل الحضاري من منظور الفكر الباديسي

الدكتور/ محمد ابن سمينة.
أستاذ بكلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية بجامعة الجزائر

تحاول هذه الكلمة أن تتلمس طريقها في رياض آثار الإمام عبد الحميد بن باديس في محاولة للتعرف على بعض ما تعبق به أنداء تلك الآثار من شذى الفكر الحضاري الإنساني الذي يؤكد على فاعلية الروابط الإنسانية، ويدعو إلى التواصل والتعاون بين الأمم، بما يساعد على تقوية الأواصر وتعضيد أسباب الصلات بينها خدمة للإنسانية جمعاء.

ويمكن أن يدور النقاش في هذه الكلمة لإجلاء تلك المقاصد في هذه المحاور:

1- البعد الإنساني في الفكر الباديسي.

2- دور المعرفة في بناء الحضارة الإنسانية.

3- على طريق الحضارة العربية الإسلامية.

4- آفاق الإفادة من المدنية الحديثة.

5- الخلاصة.

البعد الإنساني في الفكر الباديسي:

يمكن القول أن عناية الإمام ابن باديس في آثاره ومواقفه، لا تكاد تقتصر على شؤون وطنه الصغير أو وطنه الكبير فحسب، وإنما تمتد لتشمل إخوانه في الإنسانية في الوطن الأكبر (العالم الأجمع)، وإن الناظر في نتاج الإمام يلمس هذا البعد الإنساني مبثوثا في مواطن كثيرة منه، فكيف يتبدى ذلك ؟

إن الإسلام دين الأخوة الإنسانية والمحبة والتسامح، أقر التضامن الإنساني العام، ووطد بين جميع الأجناس عوامل التراحم والتعاطف والتوادد، وأمرهم بالعدل والتعاون

والإحسان، وقد غرس الإسلام في نفوس أتباعه محبة الناس أجمعين على اختلاف أعراقهم ومللهم ونحلهم، ونهاهم عن الانقياد لنزوات الحقد ونزعات التعصب وحساسيات النعرات العرقية وينص القرآن الكريم في كثير من آياته على هذه الأخوة الإنسانية: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾[1].

وإن الذي يعود إلى مصادر الثقافة الإسلامية يلمس ما تزخر به تعاليم الدين الإسلامي من تأكيد على أصالة الروح الإنسانية لدى المسلمين، هذه الروح النابعة من صميم شريعتهم، المركوزة في مكونات حضارتهم، وإن تراثهم سجل حافل بالمواقف الإنسانية المشرفة والمعاملة الحسنة التي يشمل بها المسلمون غيرهم ممن فتحوا أمصارهم في مشارق الأرض ومغاربها.

ويشهد التاريخ أن المسلمين حكموا الناس حيثما حكموا في آفاق المعمورة بالحق والعدل والإحسان، وما عرفت البشرية بشهادة المؤرخين المنصفين الغربيين أنفسهم فاتحا أرحم ولا أعدل من المسلمين وفي السيرة العطرة للنبي محمد رسول البشرية عليه الصلاة والسلام وفي أحاديثه الشريفة مواقف إنسانية خالدة وقفها مع مشركي قريش وغيرهم في أكثر من موقعة، وفي أكثر من مكان وكان مثل ذلك في سيرة صحابته رضوان الله عليهم ، من ذلك ما جاء في وصية الخليفة أبي بكر الصديق ﷺ للجيش الإسلامي وفي موقف عمر ﷺ ببيت المقدس وفي مواقف غيرهما من الصحابة والتابعين –رضي اله عنهم أجمعين– ومن اقتفى أثرهم في نشر ألوية الأخوة والمحبة والتسامح بين جميع الناس من العلماء والقادة والأمراء المسلمين[2].

وإن الشيخ يتمثل هذه الروح الإسلامية الإنسانية أحسن تمثل في جميع ما صدر عنه من مواقف، وما قام به من أعمال، وقد حرص على أن تكون هذه الروح معيارا يزن به جميع نشاطاته ويسير على هديه في جميع مبادراته وأعماله ويوجه على ضوئه خطى آليات

البناء الحضاري لحركته،ويوطد دعائم مشروعه التجديدي في أبعاده المختلفة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإنسانية.

ويعثر الكاتب في مواطن كثيرة من نتاجه على وقفات خالدة ومشاعر إنسانية صادقة، تفيض إخاء ومحبة وإحسانا نحو الإنسانية جمعاء، ويعرب فيها عن تجنده لخدمتها والعمل على الرقي بها وجلب الخير لكافة أبنائها. وقد كان عميق الإحساس بأن سعادة البشرية، إنما تكمن في اهتدائها بما جاء به رسول الإنسانيةﷺ رحمة للعالمين، وكانت البشرية قد فتحت عيونها على هدي تلك الرسالة الخاتمة فرأت الأخوة الإنسانية الصادقة وذاقت من معين مبادئها السمحة طعم الحرية الحقة، وعلى أيدي الحاكمين بتعاليمها تزينت بأبهى حلل العدل والحق والإحسان.

"فمن الإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى عرفت الإنسانية وذاقت حرية العقول والرقاب ومنه عرفت وذاقت العدل على أتم معناه، ومنه عرفت وذاقت المساواة بين العباد فيما هم متساوون"[3].

فجعله هذا لايقف في اهتماماته الإنسانية الحضارية عند حدود ما يتصل بالإنسان في وطنه الصغير(الجزائر) أو في وطنه الكبير(العالم العربي الإسلامي) فحسب، وإنما كان قد شمل بذلك أخاه الإنسان حيثما كان في وطنه الأكبر محبة له وعطفا عليه ونهوضا به وإحسانا إليه "إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها، والحدب عليها في جميع أوطانها، واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها، هو ما نقصده ونرمي إليه، ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه"[4].

تعصب و تسامح:

وليس غريبا على داعية كابن باديس يستنير بهدي دعوة الإسلام العالمية فيما ينهض بـه، وفيما يرمي إليه من مقاصد، أن يؤمن بالأخوة الإنسانية ويذهب في اهتماماته الإصلاحيـة إلى أبعد من انشغالات محيطه القريب فيعنى بقضايا الإنسانية في دائرتها الواسعة وتطلعاتها المختلفـة ويؤدي به هذا الإدراك -لما تفيض به مبادئ الإسلام من قيم الرحمة والإنصـاف والتسـامح- إلى التمييز بينها وبين ما هوى إلى إدراكه أولئك الظلمة المتبجحون بخدمة الإنسـانية مـن روح استدمارية متعصبة حاقدة، جائرة على المستضعفين من أبناء البشرية "إننا نفرق جيدا بين هذه الـروح الإنسانية والروح الاستعمارية، في كل أمة بقدر ما نكره هذه ونقاومها، نوالي تلك ونؤيدها"[5].

وإن تلك النزعة الإنسانية المزعومة عند هؤلاء، إن هي إلا مجرد شـعار يلوكونـه بألسنتهم ولا يكادون يتمثلون بشيء منه في أخلاقهم، فيما عدا ما ينفثونه في نفوس أبنائهم مـن سموم الحقد والتعصب والكراهية لغيرهم،كما تعكس ذلك صلاتهم اليومية في كنائسهم،"يا قلب يسوع الإلهي أتقدم إليك بقلب مريم الدامي،بصلواتي وأعمالي وآمالي في هذا النهار، وأقدم إليك صلواتي من أجل الغاية التي أنت ساع في سبيلها كل يوم على المذبح، وأقدم إليـك صلواتي بصفة أخص من أجل اتحاد كل الكاثوليك ومن أجل محاربة الإسلام"[6].

وإن الشيخ لا تسمح له تربيته وثقافته الإسلامية أن يترل إلى هذا الدرك فيجـاري أولئك في تعصبهم وذلك لاختلافه عنهم في طبيعة المنبع الصافي الذي ينهل منه مشـاعره وأفكاره، فإذا كان المورد الذي يغترف منه أولئك القوم تصرفاتهم ملحا أجاجا، فإن البحر الذي يرتوي منه الشيخ سائغ شرابه، طيب مذاقه "أنا كمسلم أدين بـالأخوة الإنسـانية واحترامها في جميع أجناسها وأديانها وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها وأجاهد فيما هـو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك وهو العدل والتناصف والاحترام"[7].

وكان لذلك من الطبيعي أن يقابل الإمام إساءة هؤلاء بالإحسان وحقدهم بالتسامح وتعصبهم بالإخاء فيحرص لذلك على التمكين لروح الإنسانية الصادقة المتنامية في نفوس أبناء قومه، وسلوكاتهم، حاثا إياهم على التحلي بما تفيض به مبادئ الإسلام:أخوة ومحبة وتسامحا، والتخلي عما يقابل ذلك من آفات الأنانية والكراهية والتعصب.

يتوجه الكاتب بهذه المعاني إلى قومه ممثلين في واحد منهم:"إحذر من التعصب الجنسي الممقوت فإنه أكبر علامة من علامات الهمجية والانحطاط، كن أخا إنسانيا لكل جنس من أجناس البشر كن أخا محسنا لكل أحد من كل جنس ودين، فدينك الشريف يأمرك بالإحسان"[8].

ولا يفتأ الكاتب يلح على تأكيد مقاصده هذه نحو الإنسانية جمعاء على اختلاف مللها ونحلها "أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل، والإنصاف، والاحترام مع كل أحد، من أي جنس كان، ومن أي دين كان من كل جنس، من كل دين"[9].

وإن المتأمل في نتاج الشيخ يعثر على وقفات إنسانية صادقة مبثوثة في غير ما موضع من تراثه، يعبر فيها عن صدق شعوره نحو بني البشرية جمعاء، و يمجد فيها الأخوة الإنسانية، ويعمل على نشر ما يوطد بين جميع الأجناس أركان المحبة والتعاضد والتسامح بما فيه خيرها وكمالها وسعادتها[10].

دور المعرفة في بناء الحضارة الإنسانية:

لقد حفلت مصادر التراث الإسلامي بإبراز المكانة الموقوة التي يسمو لها العقل الإنساني في منهج الدعوة الإسلامية، وبيان مدى العناية التي توليها هذه الدعوة إلى تحرير العقل من قيود التقليد والجمود وإطلاق العنان له للنظر في آيات الله، والتفكر في أسرار الكون والتزود بأدوات المعرفة

لاستكشاف ظواهره والانطلاق من ذلك إلى أسمى مقاصد الإنسان المسلم في هذه الحياة وهي الأخذ بالأسباب طلبا للفوز برضى الله في الدارين.

وإن الصلة بين الوحي والعقل، بين الدين والعلم، بين الروح والمادة، من أبرز ما يميز الشريعة الإسلامية من سمات، وقد نص القرآن الكريم والسنة المطهرة على ذلك في أكثر من آية وأكثر من حديث، فالدين جذوة الروح ونبراس القلب، والعلم سراج العقل ومشعل الفكر، وبتلاحم طرفي هذه المعادلة بين الدين والعلم في حياة الإنسان تتكامل قواه الفاعلة الخيرة، ويتحقق رقيه وتكمل إنسانيته.

وقد أدرك المسلمون خلال مراحل صحة وعيهم وسلامة قواهم الذاتية المدركة من العلل، أبعاد هذه التوجيهات الدينية، كما أدركوا في الوقت نفسه فعالية ذلك التلاحم بين الوحي والعقل لبناء الحضارة الإسلامية وفي انتظام سير مراحل التاريخ الإنساني عامة، فأقبلوا على مدارسة تراثهم الروحي والعقلي، يستنبطون منه أصول العلوم الدينية والعمرانية والكونية، ثم تطلعت أنظارهم إلى ما عند الأمم الأخرى من تراث فحذقوه ثم أضافوا إليه ما توصلوا إليه من إبداعات عبقريتهم وابتكار قرائحهم في مختلف ألوان المعرفة، مما مكنهم من أن يشيدوا حضارة رائدة في المشرق وفي المغرب، أنارت بشعلتها دروب الفكر والعمل أمام الإنسانية ، فأفادت من عطاءاتهم أمم كثيرة في أرجاء مختلفة من المعمورة "وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام بل قرون مدنيتهم، عربوا كتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا واستدركوا واكتشفوا، فأحيوا عصور علم من كانوا قبلهم، وأناروا بالعلم عصرهم ومهدوا الطريق، ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا للنوع الإنسان بالعلم والمدينة أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها"[11].

ويوم أن أصاب الوهن صلتهم بأصول دينهم و فترت جذوة الروح في صدورهم واعتلت عقولهم بأدواء الجمود والجبرية، وتقطعت الأسباب بينهم وبين مصادر المعرفة الحقة، دار التاريخ دورته في حياتهم فهوت بهم نزواتهم إلى منحدر الأهواء الشخصية والنزعات الذاتية والتكالب على حطام الدنيا والانكباب على إشباع الغرائز والشهوات فاختل يومئذ ميزان قوتهم، وبدأ نجم حضارتهم في الأفول وسلطان دولتهم في الذبول، فلم تطل بهم الأيام حتى ذهب ريح قوتهم وانتهى بهم المآل إلى السقوط والانكسار والانسحاب من ساحة الإبداع والعطاء، وإثراء المعرفة والمدنية والإنسانية، تاركين هذا المكان لغيرهم ، ممن تمسكوا بالأسباب، وأخذوا بالسنن، و مضوا يرسمون على هدي ذلك بمضاء عزائمهم، وكد عقولهم معالم الطريق على درب التقدم العلمي الحديث.

فما كان من هذه الجهود إلا أن تردد صداها في آذان جموع الهاجعين و هم في مضاجعهم، ولكنهم ما كادوا يستيقظون حتى عاود جفونهم الكرى فرجعوا إلى ما كانوا عليه منذ قرون يغطون في سبات عميق، وكان يمكن أن يطول أمد هذا الهجوع لولا هذه الكوكبة ممن استثنتهم العناية الإلهية من ذلك من رجال العلم والإصلاح، فسلمت قواهم المعنوية مما أصاب غيرهم من علل، وبقيت في صدورهم صبابة من نخوة، وجذوة من صحوة، فهبوا بذلك يصارعون الظلام ويتطلعون إلى النور من بين غياهب ليل بهيم.

وقد هزت ضمائرهم تداعيات أوضاع ذلك الواقع المرير، فانكبوا على التفكير فيما وراء ذلك من أمراض وآفات وأقبلوا على سجلات التاريخ يقلبون النظر في صحائفها ويستنطقون وقائعها وأخبارها علهم يعثرون في طياتها على ما يرشدهم إلى مكامن الداء وأسباب الدواء فاهتدوا بعد جهد في التفكير وعناء في التنقيب إلى أن ما تعانيه الأمة من وهن طال عليه الأمد، إنما مرده إلى جملة من العلل يأتي في مقدمتها: تفريطهم في جنب دينهم ، قعودهم

عن الأخذ بالأسباب، تقاعسهم عن السعي، زهدهم في طلب العلم سيطرة آفات الجهل والتقليد والجمود على قواهم العقلية وقدراتهم النفسية.

والواقع أن هذه الأدواء -وإن كان بعضها على قدر كبير من الخطورة- ما كانت تستعصي على العلاج إذا ما أسعفت الظروف المصابين بها بأن يكونوا بين يدي فريق من أطباء النفوس، وقد أصيبت العرب في جاهليتهم بما هو أشد من هذه الأمراض خطرا وقد شفاها الله منها، بما أنعم عليها بأن هداها إلى الإسلام ووفقها إلى الاستبصار بما تدعو إليه تعاليمه من إخلاص القصد واستقلال الفكر وصدق العمل والأخذ بالسنن في الإقبال على الحياة وبذل الجهد الصادق لبلوغ أسمى مراتب المجد والكمال فيها.

وقد كانت النداءات الأولى التي أطلقها رواد حركة النهضة الإسلامية في العصر الحديث ترتكز -إلى جانب سهر أصحابها على إعادة البناء الروحي للإنسان المسلم- على النهوض بالقدرات العقلية لهذا الإنسان وحضه على الأخذ بنصيبه من مختلف روافد المعرفة الإنسانية، ذلك أن الأمة التي يجثم الجهل على صدرها وتكبل قواها الوجدانية والفكرية أغلال التقليد، ليس من اليسير عليها أن تنهض من عثراتها أو تقوى على أن تتحرك من موقعها خطوة جادة إلى الأمام، بل أن تطمح إلى بلوغ مقاصدها في الانعتاق والتقدم.

وكانت طلائع هذه النهضة المباركة في الجزائر، قد انطلقت من هذه القناعات نفسها وعلى الطريق ذاته باعتكاف رائدها الإمام ابن باديس على مشروعه الإصلاحي الحضاري القائم على جملة من الركائز تأتي الدعوة إلى الأخذ بأسباب العلم من بين أهمها.

ويحسن التساؤل في مستهل هذا الحديث عن أهم الأسس التي بنى عليها ابن باديس تحليلاته لإشكالية المعرفة في مشروع النهضة، فكيف كانت تتلامح من منظوره الصلة بين الدين والعلم، وبين الفكر

والسلوك؟ وما دور العقل في بناء العقيدة الصحيحة واكتساب المعرفة الحقة؟ وما دور المعرفة بوجه عام في عملية البناء الحضاري؟

يظهر أن الإمام أدرك انطلاقا من تمثله الصادق لروح الإسلام واستيعابه السليم لدروس التاريخ ومعاناته المخلصة لمجريات الواقع وتطورات العصر، أن للعلم مكانة بالغة الأهمية فيما تصبو إليه الأمة على طريق النهوض والتحرر، وانبنى على هذا التصور أن كانت المعرفة إلى جانب العقيدة من أهم ما أقام عليه دعائم مشروعه، كما أولى عناية فائقة لما يتحقق به إدراكها من عقل مستقل وفكر مستنير، وإرادة حرة مدركا ما لهذه الوسائط من فاعلية في التأصيل لكل لبنة تشد إلى صلبها صرح هذا البناء.

وقد استهل أولى خطواته على هذه الطريق بعكوفه على مشروعه التربوي ينشر من خلاله العلم في وسط الأمة معتقدا أن البناء السليم لقدرات الإنسان الفكرية هو الذي يصحح له وعيه بنفسه وبمن حوله ويدفعه من ثم إلى السمو بسلوكه نحو مصاف الرقي والكمال ذلك أن "سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطا وثيقا يستقيم باستقامته ويعوج باعوجاجه ويثمر بإثماره ويعقم بعقمه"[12].

ويحسن ونحن بصدد تحليل معالم الدعوة إلى المعرفة في تراث ابن باديس المبادرة بالإجابة على ما يتوارد على الذهن من أسئلة، حول ما يتصل بمفهوم ابن باديس للعلم فهل كان يفهم العلم كما فهمه بعض الجامدين المتزمتين كومة من المتون المنحدرة عن عصر الضعف التي تلوكها الأفواه دون أن يصاحبها وعي سليم لمقاصدها أو يعضدها حرص راشد على توثيق الصلة بين حاملها وبين حركة الحياة من حوله؟ أم فهمه كما فهمه بعض المستلبين الذين لم يكونوا يرون وجودا خارج دائرة الحياة الغربية، ولا ينظرون إلى الأمور من حولهم إلا من خلال النظرة الأوروبية لها، حتى ولو أدى بهم ذلك إلى السقوط في

شراك التبعية الشاملة للنموذج الأجنبي، فيندفعون وراءه وهم لا يلوون على شيء، ثم لم يلبثوا أن تحولوا تحت تأثيراته إلى أبواق يذيعون في الأمة السموم والأهواء ويحسبون أنهم بذلك يحسنون صنعا، بزعمهم أن ذلك إنما هو نشر للعلم وخدمة للتقدم والعصرنة ولكن على طريقتهم الخاصة؟ وهل فهم العلم كما فهمه الغربيون لا سلطان على العقل إلا بالعقل ويعنون بذلك الاعتماد في كسب المعرفة على العقلانية والتجربة وكفى؟.

إن العلم عند أهل اليقين -كما هو في جوهره- شيء آخر مخالف الاختلاف كله لما سبق من مفاهيم مصدرا ومنهجا وأهدافا، فالمعرفة عند ابن باديس تنبع أساسا من الوحي، ثم مما شع من هدي هذا الوحي على عقول السلف فانبثقت عن ذلك عبقرياتهم بإسهامات زاخرة بالاجتهادات والممارسات في مختلف ميادين العلم والمعرفة، مما أغنى التراث الإنساني عبر الزمان والمكان بإضافات جديدة.

أما المنهج إلى تحصيل العلم فهو ما أرسى أسسه الوحي كذلك من معالم ومنارات على درب البحث والتأمل والتفكر استجلاء لحقائق الكون، وتدبرا في آياته واستقراء لظواهره، وانتفاعا بخيراته.

أما الغاية من ذلك فهي كل ما يوجه الجهود ويثمن المساعي نحو طلب الكمال الإنساني والهداية إلى الفوز بأسباب السعادة في الدارين، وانبنى على هذا التصور أن كان العلم هو عينه الصفاء الروحي الذي يتضوع به ذكاء القلب، والسمو العقلي الذي يعبق به شذى الفكر، والسلوك القويم الذي ينبثق من هذا وذاك، ويظل العلم من ثم رديف الدين في عملية البناء الحضاري في أسمى معانيه وأنبل مقاصده. وما انحطت أمة أخذت بحظها الوافر من معينه وما خابت أمة تدرعت بقوته في دفع ظلم ورد عدوان.

وقد ترتب على هذا المفهوم السليم للعلم أن كانت ثقة الإمام عظيمة بإمكاناته في بناء الأمم وتوجيه خطاها إلى أهدى السبل في دينها وأقوم المناهج في دنياها وصيانة مكتسباتها

وتوطيد ملكها، وإن أمة قل رصيدها من نور المعرفة وخوى وطابها من زاد العلم لا محالة آيلة، إن عاجلا وإن آجلا إلى الضعف والتخلف ذلك لأن العلم "هو الأصل الذي تنبني عليه سعادة الدنيا والأخرى وأنه هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، وإنه هو سياج المملكة ودرعها وهو سلاحها الحقيقي وبه دفاعها، وإن كل مملكة لم تحم به فهي عرضة للانقراض والانقضاض"[13].

ويمكن للدارس أن يلحظ في هذا النص أن الكاتب يلتقي في نظرته إلى أثر العلم مع بعض المتقدمين "فأصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم"[14].

ومن خلال هذا التصور السليم لدور العلم في عملية بناء صرح الأمم والمحافظة على كيانها رسم ابن باديس بعض معالم الطريق الذي ينبغي أن يأخذ به من ساقتهم الظروف ليكونوا على رأس حركة النهضة في هذا البلد أو ذاك، من بلاد الإسلام بإرشاد المسلمين إلى أقوم السبل على نهج عملية التجديد وتذكيرهم بضرورة الجمع في سير حركتهم بين الاستنارة بتعاليم دينهم أمرا ونهيا والمحافظة على ذاتيتهم، وبين مجاراتهم الأمم الأخرى فيما تقيم على دعائمه وجوه حياتها في مختلف فنون العلم وفروع المعرفة "وإن إرشاد المسلمين يجب أن يكون –مع تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات– إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة"[15].

وقد هزت هذه النداءات جموع الهاجعين في مضاجعهم وأيقظ ضمائرهم صوت العلم، فانتفضوا من مراقدهم ثم طفقوا ينهلون من زلال معينه، ويروون ظمأهم من عذب سلسله فكانت بذلك إشراقة الفجر الذي حمل للناس سراج المعرفة فانبلجت بنوره عتمة العقول واستنارت بضيائه البصائر، فرمقوا الطريق نحو غاياتهم، فهبوا على نهج المعرفة يعانقون أسباب الحياة الكريمة يحققون في ظلها الرجاء والتقدم.

وكانت الحركة الإصلاحية بجميع مؤسساتها في العالم العربي الإسلامي هي التي قادت حركة النهضة ودعت إلى الأخذ بأسبابها وكان العلم –كما هو معلوم– من أهمها وإذا تساءل الباحث عن الهيئة التي قامت بهذه الرسالة في الجزائر فإن الإمام ابن باديس يجيبه قائلا :" كانت جمعية العلماء فكانت نهضة الأمة دوى صوت العلم فأيقظها من رقدتها، وكذلك عرفت الأمم في تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها فهو الذي يحل الأفكار من عقلها، ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحي" [16].

شمولية المعرفة في المنظور الإسلامي:

إن الإسلام شريعة ومنهاج، ومن ثم فهو يحرص على ضبط صلة الإنسان بربه وصلته بنفسه وصلته بغيره، فقد كرم الله الإنسان بنعمة العقل وهداه إلى النظر في ملكوت الله والتأمل في آياته والذهاب إلى أبعد ما يمكن أن يصل إليه الفكر البشري من وجوه التقصي والاستقراء للوقوف على ما في الكون من مظاهر وأسرار بهدف الانتفاع بها فيما يخدم الإنسان ويرقى به "قد دعانا الله إلى العلم ورغبنا فيه في غير ماآية، وأعلمنا أنه خلق لنا ما في السماوات وما في الأرض جميعا، وأمرنا بالنظر فيما خلقه لنا" [17].

وقد ترتب على هذا التصور شمولية المعرفة في الدين الإسلامي، علوم الدين وعلوم الدنيا ما ساعد على النظر في قضايا الإنسان وشؤون الحياة وظواهر الكون، والنهوض بدور الاستخلاف بحيث ألا تقتصر اهتمامات العلم في الإسلام على ما كان شائعا في بعض البيئات في العصور المتأخرة باقتصار عزائم أصحاب ذلك الزمان في عملية الطلب على بعض العلوم الدينية المحدودة ولا تكاد هممهم تشرئب إلى غيرها في مختلف صنوف المعرفة تلك التي يتسع مداها في المنهج الإسلامي ليشمل سائر العلوم الدينية والعمرانية والكونية التي أرشد إليها القرآن والسنة وحث هذان المصدران في الوقت نفسه على التفكر والتأمل فيها [18].

ونهضت بمعالجتها مجالس العلم وحلقات البحث في أروقة المساجد والمعاهد بمختلف الأمصار في عصر ازدهار الحضارة الإسلامية "ولما كان القرآن كتاب الإنسان من جميع نواحي الإنسان وكتاب الأكوان بما فيها من نعم وعبر وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر وكتاب السعادتين الدنيوية والأخروية، كانت العلوم التي تخدم ذلك كله من علوم الإسلام"[19].

ويمكن الاستدلال من خلال ما حفل به هذا النص من تأكيد تعدد اهتمامات المعرفة وشموليتها في الإسلام أن دعوة الإمام ابن باديس في هذا الباب تمتد إلى أبعد ما يمكن أن يتطلع إليه العقل البشري عن طريق التأمل والبحث والاستقصاء في مختلف ما يهم الإنسان، وما يصل بينه وبين الحياة والكون، إلا أن يحذر في الوقت ذاته من مخاطر الوقوع في شراك بعض التأثيرات السلبية لبعض الجامدين المتحجرين ذوي الأفق المحدود الذين ينظرون إلى المعرفة نظرة ضيقة.

الأمر الذي يجعل قصارى ما تطمح عزائمهم الكليلة إلى تحصيله من ضروبها لا يتجاوز اعتكافهم على بعض الشروح وبعض المختصرات من بعض العلوم النقلية راغبين عن التزود من غيرها، عاملين على بث عدوى هذا العزوف في سواها، غافلين على أن النظرة الرشيدة في هذا المضمار تحرص على الربط في عملية التحصيل ما بين العلوم الدينية العقدية والسلوكية وبين غيرها من العلوم الدنيوية والعمرانية والكونية وانعكاساتها التطبيقية في الميدان، على حركة الاجتماع البشري والمساهمة في بناء الحضارة الإنسانية وهذه هي الخطة الرشيدة التي يحسن بالقائمين على عملية التوجيه في المجتمع أن يرسخوا أسسها في الأذهان وفي الممارسات السلوكية، لما لها من فاعلية في الإسراع بعملية النهوض واختزال المراحل لبلوغ الأهداف

المتوخاة، وصيانة المكاسب من المخاطر والتحديات "فاحذر كل متعلم يزهدك في علم من العلوم فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية ودعا إليها القرآن بالآيات الصريحة"[20].

وينبني على هذا الأساس ألا تقف الجهود المبذولة على طريق التحصيل المعرفي عند مرمى آفاق العلم المحدودة، وإنما يحسن أن تتوسع هذه العملية لتشمل -بالإضافة إلى علم العقيدة وعلم الشريعة وغيرهما من العلوم الدينية- الإقبال على العلوم الحديثة والاجتهاد بالانتفاع بها فيما يرقى بالأمة ويساعد على ازدهار المدنية ويخدم الإنسانية، كما يجب أن تسترشد الأمة في هذه العملية في الوقت ذاته بما أشاده أسلافنا من معالم وما أعلوه من منارات في صرح الحضارة الإنسانية.

على طريق الحضارة العربية الإسلامية:

ويحسن التذكير في هذا المضمار أن الخطوة الأولى التي ينبغي على الأمة أن تخطوها في عملية التواصل مع عطاءات التجربة الإنسانية أن تعود إلى ذاتها فتستقرئ تراثها الروحي والعقلي وتستلهم منه الروح والمنهج، وتستوعب أطوار تاريخها وتتحقق من عوامل رقيها، وأسباب انحطاطها، وأن تنظر في الوقت ذاته مثل هذه النظرة الناقدة الفاحصة في تراث الأمم الأخرى ومدنياتهم بما يخولها -وهي في مرحلة الإفادة والاقتباس- أن تعرف ما تأخذ وما تدع من عطاءات الخبرة الإنسانية المعاصرة.

لقد كان العرب منذ ماضيهم السحيق أمة ذات تاريخ مجيد وحضارة باذخة، بلغت شأوا عظيما في القوة والعمران والنظام فقد عرفت جزيرتهم حضارة اليمن، كما عرفت هذه الجزيرة حضارة (عاد) و(ثمود) وهما "أمتان من الأمم العربية أثبت القرآن حالهما فكان لنا مصدرا تاريخيا معصوما في إثبات حضارة الشعوب العربية التي بزت فيها الأمم"[21].

ولما جاء الإسلام نفخ في العرب روحا جديدة، فانطلقوا تحت رايته ينشرون في المعمورة ما جاءت به دعوته من مبادئ الحق والرحمة والإحسان، ويجتهدون في استكمال بناء حضارتهم على هذه الأصول العظيمة وعلى ما يفيدون من احتكاكهم بتجارب غيرهم، فدخل الناس في دين الله أفواجا، وعمهم تحت لواء مدنيته الأمن والرخاء والعمران، في جميع الأمصار التي فتحوها مشرقا ومغربا:"وبهذه الأصول العظيمة أمكن اشتراك أمم كثيرة تحت راية الإسلام في خدمة العلم والمدنية حتى ازدهرت رياضهما وسمت صروحهما في الشرق والغرب واغترفت من معينهما أبناء الإنسانية جمعاء"[22].

وإذا كان بعض المسلمين في العصر الحديث قد حادوا عن تعاليم دينهم الحنيف، ففقدوا بذلك عزهم وذهب ريحهم وتسلط على مصائرهم الأجانب، فإن لهم من كنوز تراثهم ما من شأنه إذا رجعوا إليه أن يعيد لهم الثقة بأنفسهم فيسترجعوا ما ضاع منهم، ويزيدوا عليه ، بما يرفع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، ويمدهم بعوامل القوة وينير من أمامهم الطريق نحو الانعتاق والتقدم.

ويحاول الإمام وهو –في هذا الموقع الحساس– يقوم بالإسهام في توجيه مسيرة الأمة على طريق البناء الحضاري أن ينثر بين يديها بعض المعالم التي يحسن أن تسترشد بها في هذه العملية.

آفاق الإفادة من المدنية الحديثة:

يرى الإمام في هذا المجال أن من الواجب على الأمة وهي تعيش في عصر لا مكانة فيه لمن يحكم على نفسه بالانطواء والعزلة عما يجري في المجتمع الإنساني، أن تشارك الآخرين فيما أنتجته عقولهم وفيما حذقته أفكارهم، وأن تقوم بذلك في ضوء نظرة مزدوجة، قوامها الأصالة والمعاصرة، ولعل من أهم ما يعنيه مفهوم الأصالة، الشعور بالتمييز الحضاري الذي يجب الأخذ به في عملية المعاصرة التي تعني –في جملة ما تعنيه– الاقتباس من عطاءات الآخرين فتنظر الأمة بعين إلى

أصول حضارتها وبأخرى إلى مقومات المدنية الغربية الحديثة وأن توازن بين هذه وتلك ، حتى لا تضل الطريق فتخطئ المقاصد وتضيع الجهود سدى، وإذا هي نظرت هذه النظرة الناقدة الحكيمة، فستدرك –ولا شك– أن المدنية الغربية "مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان"[23].

ويرى الإمام، من نحو آخر أن الحضارة الإسلامية إنما قامت وازدهرت على الوفاء بعنصر التوازن بين الروح والمادة، ولا يخفى أن المدنية الحقة هي التي تنجح في نهوضها بهذا التكامل بين المطالب الروحية والحاجات المادية للإنسان، ذلك أن رقي هذا الإنسان لا يكتمل إلا في ظل الوفاء بحاجته من هاتين الناحيتين في توازن وتوافق وانسجام.

إن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، وإنما يتطلب قبل ذلك وبعده تلبية حاجاته الوجدانية والعقلية، عقائده وأخلاقه وأشواقه، وأن أي عجز في الوفاء بناحية من هاتين الناحيتين سيؤدي بالإنسان إلى الانحراف ومن ثم إلى القصور في القيام بدور الخلافة المنوط بكاهله في هذه الأرض، وإن الأسوأ من ذلك أن يزيغ من يزيغ عن هذا المنهج، فيفهم مطالب الإنسان على غير هذا النسق فيدفعه ذلك إلى العناية بجانب على حساب الجانب الآخر، كأن يعكف على حاجة الروح ويهمل غيرها، بما يؤدي إلى عرقلة وتذبذب حركة الحياة الدائبة عن الإسهام في مسيرة النظام والعمران بالمنهج اللازم، أو ينغمس في حمأة المادة ويغفل عما سواها فتجف ينابيع روحه وتذبل أزهار وجدانه، فتصير الغاية عنده كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة.

وإذا ما أصبح المسلمون في العصر الحاضر قاصرين لأكثر من سبب على القيام بما يتطلبه البناء الحضاري من توازن بين حاجات الإنسان الروحية والمادية[24]، فإن هذا الاختلال لايصوغ

لهم بحال الارتماء على إفرازات المدنية الغربية من دون تمييز بين ما يساير مبادئنا منها وما يخالفها، بين العلم والعمران نتاج العقل البشري.

وبين مايميز خصوصية كل أمة من جانب الأخلاق والاجتماع، والمسلمون أغنياء بتراثهم في هذا الجانب مما يجعلهم في غنى عن الحاجة فيه لأي كان، ولكنهم فقراء اليوم على عكس أمسهم فقرا مدقعا من الناحية العقلية مما أبدع فيه الغرب وأجاد، مما يفرض على المسلمين الإسراع في استكمال هذا النقص بالاستجابة إلى ما دعاهم إليه دينهم من إعمال العقل وإنعام النظر فيما سخر الله لهم مما في السماوات والأرض وما بينهما من كائنات وظواهر والاستفادة مما بلغت إليه جهود غيرهم في هذا المضمار من تقدم العلم وتطور العمران.

وقد افترقت السبل بأعلام النهضة في العالم الإسلامي بصدد عملية الاقتباس هذه، ما بين مفَرط ومفْرط، ومعتدل، فكان من ذلك ثلاثة تيارات:

أولها: يكاد يرفض أن يأخذ من الغرب شيئا و أصحاب هذا التيار يلتقون بانكفائهم على الذات إلى حد بعيد.

وثانيها: يعيش أصحابه بيننا بأجسامهم، وقلوبهم وعقولهم هنالك في الغرب(فريق الطفرة).

أما الفريق الثالث: فقد وقف في هذه القضية موقفا موضوعيا معتدلا (مدرسة النهضة الإسلامية الحديثة).

وإذا جئنا إلى تحليل نظرة أصحاب هذا الفريق الأخير فإننا واجدون أن أشد ما أفزعهم ما آل إليه في هذا العصر العقل المسلم من تحجر وجمود، وتقليد وركود، وما نجم عن ذلك مما انتهى إليه المجتمع الإسلامي من تخلف ورضوخ، وتشرذم واحتلال ، بينما نظروا في الضفة الأخرى فاندهشوا لما أحرزه العقل الإنساني في الغرب من تحرر وتقدم وانطلاق واستقلال، وقد انعكست

آثار ذلك فيما تفتقت عنه العبقرية الغربية من علم وعمران ونظام، وإنما لصورة مقلوبة ومفارقة عجيبة أن يزهد المسلمون في العلم، ويقنعون بالقليل منه في الوقت الذي يحثهم دينهم على طلب المزيد منه.

بينما غيرهم يرغب في ذلك ويجد في طلبه، مما جعل المسافة بيننا وبينهم في هذا المجال بعيدة، الأمر الذي يستوجب من المسلمين أن يجدوا ويجتهدوا لأخذ حظهم -بوعي وتبصر- مما بلغت إليه الخبرة الإنسانية على يد الغرب من ابتكارات العقل واجتهادات التجربة دون غير ذلك من ثقافته وأخلاقه وسوى ذلك من خصوصياته الذاتية المميزة له "للغرب أخلاقه وعوائده وتقاليده الموروثة عن الأجيال السالفة، المميزة له عن أمم الشرق، وليست مدنيته الحاضرة مبنية عليها ولا سيادته على الشرق بسببها، وليس من مصلحة الشرق أن يقلده فيها ولا بممكن له وللغرب أيضا العلم المثمر، والعمل المستمر، والنظام الشامل، والتهذيب العام، وحرية التفكير والقول والعمل"[25].

وإن ابن باديس يقرر بهذه النظرة الصائبة أن المدنية الغربية ليست شرا كلها وليست خيرا كلها، مما يقتضي الإعراض عنها جملة، أو الإقبال عليها كلية، وإنما هي ككل عمل إنساني يشتمل على النافع والضار والصالح والطالح، مما يستدعي التمييز بين هذا وذاك في عملية الاحتكاك والمخالطة، ويترتب على هذا منطقيا وتاريخيا، أن الاقتباس كمبدأ ليس مرفوضا إذ لم يأمر الشرع بذلك، كما لم يحدث أن قال به أحد من المفكرين المسلمين لا في القديم ولا في الحديث، وإنما الذي وقع هو العكس.

فقد حث الإسلام أتباعه على ربط الصلة بينهم وبين غيرهم من الأمم أخذا وعطاءا، كما دعا إلى الاقتباس من صالح تراث هذه الأمم، فقد جاء في الحديث "اطلبوا العلم ولو بالصين" رواه البيهقي وقيل ضعيف[26].

وإذا كان الإسلام يدعو إلى التفتح على آثار الأمم الأخرى ويحث على الإفادة منها، فكيف كانت استجابة المسلمين لهذه الدعوة؟ لقد سجل التاريخ استجابة المسلمين لدعوة دينهم في

هذا المجال فأقبلوا على النظر فيما عند غيرهم، فقاموا بدرسه وتمحيصه، والإضافة إليه لإدراكهم أن الحضارة الإنسانية لم تنشأ من جهد عبقرية جنس واحد وإنما اشترك في بنائها عدد من الشعوب والملل، وإنما غاية ما يمكن التأكيد عليه في هذا المضمار ألا تكون هذه العملية بدون قيود، وإنما يحسن ضبطها في أطر توضح معالمها وترسم سير حركتها، وإذا كانت الأمة قد وقفت في وقت من الأوقات ذلك الموقف الحذر حينا والرافض أحيانا لما كانت تحرص دوائر الاحتلال على أن تغزوها به من ثقافة القهر والتعصب، فإنها لم تفعل ذلك بدافع الانغلاق على الذات أو التعصب ضد الآخرين، وما يجدر أن يكون ذلك من شيمة أمة، طلب المعرفة حيثما كانت، مبدأ أصيل من مبادئ دينها "الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجد المؤمن ضالته فليجمعها إليه"[27] رواه الترميذي.

وإنما فعلت أمتنا ما فعلت بكامل وعيها في إطار مواجهتها الشاملة، لكل ماله صلة بالمحتل، دفاعا وتحصينا لذاتها، وبخاصة في تلك الفترات التي كانت تحس بضعف في مناعتها الذاتية، أمام تأثيرات سموم ما يفد عليها من الغرب الغالب، وقد بذلت الكثير من أجل أن تثبت ذاتها، وتستعيد سالف عهدها في ميدان العلم، بما يخدم مقاصدها ويحفظ عليها خصوصياتها، وليس من أجل أن تزيد في تعميق هذه التبعية للغرب التي يعدها بعض من بني جلدتنا حداثة وعصرنة وتقدمية فيا لها من حداثة! ويا لها من عصرنة! ويا لها من تقدمية!.

وإن دعاة الغزو الفكري، يدركون أكثر من غيرهم أن التقدم العلمي، وهو من أبرز ما تراهن عليه الأمم المستقلة حديثا، للاستعانة به على الخروج من التخلف وإحراز التقدم، إنما ينبغي أن يسبقه أو يزامنه لكي يؤتي ثماره إعداد نفسي قائم على استيعاب الأمم لحقائقها الذاتية وخصوصياتها الحضارية وقد انبنى على هذا بداهة أن الخبرة التي تنشدها هذه الأمم في نهضتها المعاصرة يجب ألا تتوسل إليها بأدوات غيرها أو تلبس في طلبها، لباسا ليس من صنعها، وإنما المطلوب أن تلتمس ودها على ضوء من مقوماتها وقيمها.

وإذا أصبحت القضية بهذا الوضوح، فإن الطريق الصحيح الذي يرشد إلى الاستفادة السليمة والسبيل الأقوم، الذي يتكفل بتعميق عائداتنا ويحسن مردوديتها يتمثل أحسن ما يتمثل في الاحتكاك بالغرب احتكاكا عمليا واعيا يصل بين المسلمين وبين مختلف مظاهر المدنية الغربية الحقة في مختلف حقول العلم والعمران، في مؤسساته التجارية والصناعية، في نظمه الاقتصادية والسياسية.

"فإذا أردنا اليوم أن نقتبس منهم كما اقتبسوا منا، ونأخذ عنهم كما أخذوا عنا، فعلينا أن نخالطهم ونخالطهم في ديارهم حيث مظاهر مدنيتهم الفخمة، في مؤسساتهم العلمية والصناعية والتجارية"[28].

ونلحظ أن النص فضلة من مقال أملته مناسبة سفر أحد الوفود الجزائرية إبان العشرينات من هذا القرن إلى فرنسا بهدف الاستفادة، فكانت الرغبة ملحة بالمبادرة بلفت نظر أعضاء هذا الوفد إلى حسن استثمار هذه الرحلة، بوجودهم بديار الغرب بما يعبر عن إرادة أمتهم في الاقتباس الواعي المفيد مع شدة تمسكهم بأخلاقها وآدابها.

وما دام ابن باديس يدعو إلى هذا الضرب من الاستفادة القائمة على الاحتكاك الميداني المباشر والمخالطة العملية الواعية، فلا نشك أنه كان يدرك في الوقت ذاته، أن هذا المطلب ليس من السهل بلوغه من غير طريق الإلمام بلغة القوم، وإذن فماذا كان موقفه من ذلك؟.

أ- موقفه من اللغات الأجنبية:

إن ابن باديس وهو ينطلق في توجيهاته العامة من مبدأ ضرورة المحافظة على خصوصيات الأمة فإنه لم يكن أبدا من المتعصبين ضد الآخرين، كما لم يكن أيضا من دعاة الانغلاق والانكفاء على الذات، وكان عميق الوعي قوي الإدراك، بأهمية اللسان وفاعليته في هذه العملية المنشودة، عملية التفاعل الحضاري بين الأمم ومحاولة الإفادة من مختلف عطاءات الخبرة الإنسانية، فهو يرى أن اللسان "رابطة أفراد النوع الإنساني وعشائره وأممه وبريد عقله وواسطة تفاهمه"[29].

ولم يكن من المنطقي أن تغيب هذه الحقيقة على ذهن من عاصر معركة الصراع الفكري وكان له إلمام بملابسات انتقال الحضارة من أمة إلى أخرى، وكذلك كان من البديهي أن يشجع الإمام على تعلم اللغات الأجنبية وهو يعتقد أن ذلك مما يحض عليه الدين، وقد استوعب السلف هذا الدرس فأخذوا به في ممارساتهم العلمية، فشيدوا على أركانه صرح حضارة رائدة "كنا نؤمن بان اللغات الأجنبية كلها محترمة، وأنها من آيات الله من قول ربنا ومن آياته اختلاف ألسنتكم"[30].

وقد جسد الكاتب هذا الإيمان سلوكيا في الواقع العملي من خلال ما يشرف عليه من مؤسسات تربوية واجتماعية، فقد نص القانون الداخلي لجمعية التربية والتعليم التي كان يرأسها الإمام على تعليم تلامذتها اللسان الفرنسي كلغة ثانوية إلى جانب اللغة العربية[31]. كما سرى العمل بذلك من بعد، في مدارس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وإذا كان هذا هو موقفه من اللغات الأجنبية كنافذة على الثقافة الإنسانية فكيف كان موقفه من التعليم الأجنبي الذي يكاد ينفرد يومئذ بالميدان التربوي في الجزائر تحت وطأة إجراءات الحضر الصارمة على التعليم العربي؟.

ب- موقفه من التعليم الأجنبي:

ويحسن بهذا الصدد المبادرة بالإشارة إلى أن موقف ابن باديس من هذا التعليم سيكون غير موقفه من اللغة الأجنبية، ذاك أن دعوته إلى تعلم هذه اللغة، إنما كان ساري المفعول به في مدارس الأمة الواقعة تحت إشرافها وتوجيهها.

أما المدارس الأجنبية فهي خاضعة لإدارة الاحتلال، ومرسومة خططها بالدرجة الأولى لخدمة أغراضه ونشر وسمومه وكان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم، إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف حتى إذا خرجوا

منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم، وقد ينكرونها، هذه هي الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث"[32].

ولعل بهذا البيان يتضح أن التعليم الأجنبي الذي هيمنت أنظمته على الساحة التربوية في الجزائر إبان الاحتلال شيء، وفكرة إدراج اللسان الأجنبي في المنظومة التربوية الوطنية شيء آخر وإن ابن باديس وهو يرسي دعائم حركته على أصول المنهج الإسلامي الداعي إلى طلب العلم وأخذ الحكمة من مصادرها لا يمكن أن يكون تحفظه من التعليم الأجنبي والتحذير من آثاره السلبية على الفرد والمجتمع قد كان وليد نزعة تعصب دفعته إلى الانزواء ومقاطعة الآخرين وعدم الاحتكاك بهم وإنما قصارى ما كان يرمي إليه بموقفه من ذلك التعليم، أن تكون عملية التفاعل والاستفادة واعية وقائمة على الأصول الثابتة من تراث الأمة، بما يندفع عنها ما يكون من تجارب الآخرين غير ملائم لمبادئها وأسس حضارتها.

وإن ابن باديس وهو يقيم بهذه النزاهة وهذه الموضوعية آثار المدرسة الأجنبية على شخصية النشء ومستقبل الأمة، لم يفته أن يذكر بأن الانغلاق والانطواء على الذات صفتان ذميمتان لا يليق أن يتصف بهما، من تسهر حركة النهضة، على إعداده لحمل أمانة النهوض بالأمة والمضي بها دون ما كلل ولا ملل، حتى تنقشع تلك الغيوم التي تلبد سماء الوطن بظلام ليلها البهيم وتسطع من ورائها إشراقة الفجر الجديد وإن جيلا تشبع بهذه التوجيهات ووطن نفسه على تجشم الصعاب وتذليل الحواجز من أجل بلوغها لا محالة أن يكون مدركا لأثر العلم فيما يسعى إلى النهوض به عاكفا على مصادر تراث أمته، آخذا بالصالح من آثار غيرها، علما وحكمة وأدبا، وأن يتخذ من كل ذلك، منافذ يطل من خلالها على عوالم أرحب في المعرفة، وآفاق أوسع في الفكر، وحقول أعمق في الثقافة، منطلقا في ذلك كله من إحساس واع بما بلغ إليه من مناعة ذاتية قوية لا يخشى معها على قدراته الشخصية من مخاطر الاستلاب والذوبان.

وينبغي أن يكون من أهداف هذا التعليم الأجنبي شيء من تثقيف الجزائريين وتهذيبهم ونشر المعرفة بينهم وإنقاذهم مما يكبل عقولهم من أغلال الجهل والجمود والأوهام، وإنما قصارى ما ترمي إليه برامجه احتواء أبناء الأهالي ضمن مخطط مدروس يرمي إلى إبقاء وطنهم تحت السيطرة الأجنبية وتلقينهم ما يلمع تاريخ الغزاة ويصفهم بالعظمة والمدنية، ويرسم أمام أعينهم في الوقت ذاته صورة مشوهة على حضارة أمتهم وتاريخها والتركيز عل تدمير روح الغيرة عليهما في أنفسهم، ومحاولة اجتثاث بذور الاعتزاز من قلوبهم بهما ودفعهم من ثمة إلى التنكر لهما والانسلاخ عنهما.

وقد تجسدت هذه التأثيرات السلبية في الواقع من خلال سلوكات ومواقف بعض المهيكلين في الجهاز التعليمي من أفراد الأمة الذين لم يتورع بعضهم عن إعلانه التنكر لمقومات قومه والوقوف موقفا متخاذلا تجاه ما تتعرض له حقوقهم وقضاياهم المصيرية، الأمر الذي دفع الأمة إلى الوقوف موقفا حازما من هذا المخطط التغريبي وكان من البديهي أن يكون موقف الإمام انعكاسا طبيعيا لموقف الأمة بيد أن الأمر لم يبلغ به لتزاهته إلى الحد الذي يرفض فيه موضوع الاقتباس من الثقافة الغربية، لأنه كان يفرق ما بين الاستفادة من الخبرة الإنسانية، وبين ما تنفثه تلك المؤسسة الأجنبية من سموم في قلوب الناشئة وعقولهم ويمكن أن يكون بهذا قد أصبح من الواضح أن التحفظ من التعليم الأجنبي شيء، والدعوة إلى الاستفادة من المدنية الغربية شيء آخر.

الأمر الذي يسمح للمنخرطين فيه بحسن الإفادة منه وصيانة أنفسهم من أضراره ومخاطره بآن، وقد استطاع أن يسير على الدرب، وينهض بهذا الدور، بعض من كان قد حصل له ذلك من أصول أسرية أو اجتماعية فحمته على كل حال مما كان يمكن أن يتعرض له من انحراف واستلاب، وقد كانت العلاقة قبل انبثاق فجر النهضة متوترة بين هؤلاء المهيكلين في المدرسة

الأجنبية وبين إخوانهم طلبة الزوايا والكتاتيب القرآنية هذه التي كانت تمثل التعليم الأهلي في الجزائر يومئذ، وكان كل طرف ينظر إلى الطرف الآخر، نظرة مريبة، ولا يستبعد أن يكون لدوائر الاحتلال ضلع في ذلك كما كان لها شيء من ذلك بين الأشقاء في الميدان السياسي حتى تخضع الجميع لسلطانها.

ولاشك أن يكون ابن باديس قد تفطن لهذه الخطة فحاول في ميدانه توحيدا لجهود الأمة وجمعا لصفوفها وترشيدا لطاقاتها أن يقف من هذين الطرفين موقفا وسطا يسعى من خلاله إلى تأسيس تيار ثالث يعمل على تقريب وجهات النظر وتحسين العلاقة بين الفريقين"هكذا كانت الجزائر في الحركة العلمية إلى أن مرت عليها مائة عام وأنشئت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فتولت إفهام كل طرف بقيمة الطرف الآخر، وبينت للجميع أنهم مهما نطقوا بأي لسان فهم من الجزائر وإلى الجزائر، ولا تنهض الجزائر، إلا بهم، ولا ينهضون إلا بها"[33].

فقد عمل ابن باديس على إفهام كلا الطرفين من أنهما شيء واحد، فمهما يكن بينهما من اختلاف اللسان الذي يتم به تحصيل العلم لدى كل منهما، فإن الذي يميز هذا عن الآخر، إنما هو الشعور الذي يملأ وجدان كل منهما نحو أمته، والسلوك الذي ينبثق عن ذلك، اعتزازا بها وتعلقا بمبادئها إيجابا أو تنكرا لها وانسلاخا عنها سلبا.

ويرى ابن باديس أن المتعلم الأهلي بالمدرسة الفرنسية واحد من ثلاثة: أما أولهم وهو الأكثرية، فقد استطاعت المؤسسة الأجنبية ببرامجها المغرضة أن تشوه نظرة أصحاب هذا الفريق نحو دينهم وتراثهم فضعفت صلتهم بذلك فانسلخ بعضهم عنه، وإن الواقع المعيش أفرز، وما يزال يفرز من يوم إلى آخر، نماذج من هؤلاء تراهم فتحسهم من بعض تصرفاتهم أنهم امتداد إلى ما كان من سلوك أمثالهم بالأمس، ومن بين ما يرمز إلى ذلك من صور سلوكية:

إصرارهم -بالرغم من مرور أكثر من أربعين حولا على إجلاء الأجانب من أرضنا- على اتخاذ لسانهم أداة للتعبير عن عواطفهم وأفكارهم، حوارا ونصا، زاهدين في لغة قومهم حينا ومستصغرين شأنها في كثير من الأحيان"قسم طلبوا العلم من الغير فنالوه، إلا أن الغير طبعهم بطبعه، فهم عوضا أن يأتونا به مطبوعا بطابعنا الفطري الذي هو حبل الاتصال بين أفراد أمتنا وبين جامعتهم القومية، أصبحوا متأثرين بطابع الغير"[34].

وأما الفريق الثاني فيبدو أنه استعصى على محاولات خبراء الغزو الفكري ولم تلن قناته لهم ليحتووه وفق مخططهم فعملوا لذلك على الحيلولة بينه وبين السبل التي تمكنه من نفع نفسه ونفع أمته فأفلحوا في ذلك إلى حد فضاعت جهوده سدى "وقسم نالوا العلم ولم يحسنوا التصرف فيه، لنفع مجتمعهم ووسطهم"[35].

أما الفريق الثالث والأخير وهو القلة حسبما تؤكده إحصائيات الواقع فقد استطاع أصحابه أن يفلتوا إلى حد ما من أحابيل تلك المدرسة الأجنبية ويتمردوا على سياستها، ويسلموا من سمومها ويفيدوا أمتهم بعض الإفادة بما استطاعوا أن ينفذوا إليه بجهودهم الذاتية من ثقافة الغرب وعلومه "وقسم نالوا العلم من الغير وأحسنوا التصرف فيه، ونفعوا به بلادهم وقومهم فهذا الفريق هو الذي نحتاج إليه اليوم وعلى يديه يكون رقي البلاد وخيرها"[36]، ومن أبرز من مثل هذا الفريق من الأدباء والمفكرين الجزائريين: مالك بن نبي، مالك حداد، محمد بن شنب وآخرون.

وإن هذه السلوكات والنتائج التي انتهى إليها كل فريق من هؤلاء تدفع إلى التساؤل عن أسباب ذلك، فبما يمكن تفسير نجاح أصحاب هذا الفريق الأخير في مهمته من حيث فشل فيها غيره؟ يمكن أن يكون مرد ذلك لعوامل ذاتية شخصية وأسرية، تلك التي تتمثل في العادة، فيما يكون بين الأشخاص من فروق فردية في الاستعدادات والسلوكات، فهم متفقون

في عوامل الزمان والمكان ونوع التعليم ويتوافقون في السن ويقطنون بيئة واحدة وتجمع بينهم مدرسة واحدة، ومع ذلك فهم مختلفون في مواقفهم وتصرفاتهم، لماذا كان ذلك؟.

يبدو أن ذلك يرجع إلى بعض العوامل الذاتية والتأثيرات الأسرية التي تلعب دورها في توجيه كل من هؤلاء الوجهة التي تلائم ميوله، وتناسب مكوناته الشخصية، وتحسن الإشارة إلى أن هذه النتيجة التي ينتهي إليها مردود المدرسة الأجنبية، وتأثيراتها على الأمة، تجعل المرء يدرك أن ثلثي تلامذة هذه المدرسة، أي أكثر من 60% من مجموع المنتسبين لها تخسرهم الأمة مرتين: المرة الأولى بضياع جهودهم سدى (الفريق الأول نموذجا) والمرة الثانية بانسلاخهم عن تراثهم وتنكرهم لهويتهم (الفريق الثاني نموذجا).

وإذا كان الواجب يستدعي القيام بعملية إرشاد اتجاه عناصر الفريقين الأولين بتوعيتهم بخطورة ما استهدفهم من تغريب واستلاب، فإن هذا الواجب نفسه يفرض وفي الوقت ذاته العمل وبكل قوة على تثمين توجهات الفريق الثالث، وتشجيع أصحابه على الاستمرار في عملية إقبالهم على الاستفادة من علوم الغرب بأي لسان ومن أي كان، شريطة أن يحرصوا على طبع ما يأخذونه من هذا الجانب أو ذاك بطابع أمتهم، وتوظيفه كأداة فاعلة في عملية النهوض بها، ودفع عجلة حركتها على طريق ما تتطلع إليه من تحرر ورقي "فأرجوكم أيها الشبان الحازمون (ويعني أصحاب الفريق الثالث) أن تأخذوا العلم بأي لسان وعن أي شخص وجدتموه وأن تطبعوه لتنتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوروبيون من أجدادنا"[37].

الخلاصة:

وتخلص هذه الكلمة مما تقدم من تحليل عن عملية التواصل الحضاري بين المسلمين وبين المدنية الحديثة من خلال منظور الفكر الباديسي أن تصور الإمام لهذا الموضوع يختلف اختلافا واضحا عما ينادي به بعض المنبهرين بالمدينة الغربية في البلاد الإسلامية أولئك الذين حاولوا

جهدهم أن يدفعوا بالأمة بقوة في منعطف الاستلاب والإدماج في الغرب والامتزاج به في جميع مظاهر حياته فعملوا بذلك من موقف المغلوب المهزوم على نقل الغالب إلى بلادهم، فسهلوا بذلك عليه عملية ابتلاعنا في عقر دارنا "المستغربون في بلاد الإسلام نموذجا"[38] وكان عملهم هذا خلافا لمن حاول نقل بلاده إلى الغرب والاقتباس من مدنيته من موقع الشعور الفياض بالتميز في الأصول وفي الفروع، مما لم يتوقف عند حد تدعيم موقف الموروث وتمكينه من الثبات فحسب في وجه الوافد، وإنما تجاوز ذلك إلى موقف المنافسة والمغالبة (اليابان نموذجا).

ومما يحسن التأكيد عليه في ختام هذه الكلمة أن الإمام ابن باديس–وهو يدعو في توجيهاته العامة إلى هذا الضرب من الاستفادة القائمة على الاحتكاك الميداني المباشر بالمدنية الغربية والمخالطة العملية الواعية لها– لم يفته أن يؤكد في الوقت ذاته على ضرورة قيام هذه العملية على مبدأ المحافظة على خصوصيات الأمة؛ وكان ينطلق في ذلك من موقف حكيم يتميز عما ذهب إليه بعض المغالين في هذا المجال، سواء منهم أولئك المستلبون الذين رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعا للمحتلين ورضوا لأمتهم بأن تكون تابعة لا متبوعة، أو هؤلاء الذين لم ترتق بهم إمكاناتهم الذاتية إلى مستوى الصراع الدائر بين أمتهم وبين المحتلين فجنحوا إلى الانغلاق والانكفاء على الذات، ظنا منهم أنهم بذلك يحسنون صنعا.

إن الإمام ابن باديس لم يكن لا من هؤلاء ولا من أولئك، وإنما كان واحدا من رواد النهضة الإسلامية، وأحد أعلام الحركة الإصلاحية الحديثة، هؤلاء الذين تميزوا كسابقيهم على هذا النهج بالاعتدال والوسطية فكان لذلك يرى أن الحضارة الإنسانية، إنما قامت وازدهرت بمساهمة عبقرية عدة أمم تتكلم ألسنة مختلفة.

ولذلك لم يكن بالبداهة أن يكون مكانه بين المشجعين على التزهيد فيما يساعد على بلـــوغ المقاصد في التزود من مناهل العلم ، كما لم يكن من المنطقي أن يقف في وجه ما يقرب بين الأمم ، وإنمـا كان على خلاف ذلك يجاهد من أجل التمكين لعرى التعارف والتقارب وتوطيد أواصر الأخوة والمحبـة، وأسباب التفاهم والتعاون بين أبناء الإنسانية قاطبة لخير الإنسانية وسعادتها جمعاء.

الهوامش

1- سورة الحجرات. الآية13.

2- مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي. ص 16 .

3- آثار الإمام ابن باديس. 2 :288 . وزارة الشؤون الدينية . ط 1. الجزائر .1402. 1982.

4- ابن باديس حياته وآثاره. 3: 234. ط1. إعداد د.عمار الطالبي، دار اليقظة العربية . دمشق. 1388. 1968.

5- آثار الإمام ابن باديس. 5 : 378 .

6- م، ن. 5: 464 . عن الصدى الكنسي لقسنطينة وعنابة. 1936 .

7- م، ن. 5: 517 .

8- م، ن. 4 : 44.

9- م، ن. 215.

10- ابن باديس حياته وآثاره. 1: 300.

11- آثار الإمام ابن باديس . 1: 138 .

12- م، ن. 139 .

13- م، ن. 332.

14- أبو حامد الغزالي. إحياء علوم الدين. 1: 12. دار المعرفة. بيروت. لبنان. 1403. 1983 .

15- ابن باديس حياته وآثاره. 4 : 197 .

16- آثار الإمام ابن باديس. 4 : 204 .

17- م، ن. 1 : 234 .

18- أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي. 2: 117. (م .و. ك) الجزائر. 1985 .

19- ابن باديس حياته وآثاره. 3 : 225 .

20- م، ن. 117 .

21- م، ن. 4: 71 .

22- م، ن. 3: 508 .

23- آثار الإمام ابن باديس. 1: 210 .

24- مالك بن نبي. وجهة العالم الإسلامي. ص 192 .

25- آثار الإمام ابن باديس. 5: 215 .

26 ،27- ينظر إسماعيل بن محمد الجراحي. كشف الخفاء و مزيل الإلباس عما اشتهر في الأحاديث على ألسنة الناس. 1: 154، 434 .

28- آثار الإمام ابن باديس.5: 429

29- ابن باديس حياته وآثاره. 1: 282 .

30- آثار الإمام ابن باديس. 6: 212 .

31،32- ابن باديس حياته وآثاره. 3: 266 .

33- م، ن. 4: 332 .

34،35- م، ن. 4: 340 .

36،37- م، ن. 4: 340 .

38- د. محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. 2: 221 .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

"سورة النحل، الآية 125"